﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: 184]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد فرض الصّيام شرع السّياق في بيان أحكامه و التّرغيب فيه:

الـصّـوم حكمة ناضرة وأحكام باهرة

بعد أن أوجب الصّيام في الآية السّابقة، شرع في بيان حدوده وأحكامه، والتّرغيب فيه، ومعلوم أنّ "الصّوم يكسر الشّهوة الّتي هي مبدأ المعصيَة، ويورث التّقوى، ويقمع الهوى، ويردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوّن لذّات الدّنيا"[1]، وفي الآية إشارة إلى ما في الصّيام من فوائد جمّة لا تدركها العقول، فإنّه فضلاً عن كونه مرضاة للرّبّ، ومطهرة للنّفس؛ فقد ثبت أنّه علاجٌ ناجعٌ لكثير من الأمراض المستعصية، فكان حريًّا بالآيات أن تزاوج بين الحِكْمَةِ والحُكْمِ، وأنْ تُرغّب في الصّيام فريضة وتطوُّعًا؛ لتحقيق غاياته النّبيلة، وحِكَمِهِ الجليلة.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: "أصل السَّفَر من الكشف؛ وذلك أنّه يكشف من أحوالِ الرّجالِ وأخلاقهم"[2]، "وسمّي المُسَافِر مُسَافِرًا، لكشفه قِناعَ الكِنِّ عَن وَجهه، وبرُوزِه إِلَى الأَرْض الفضاء، وسُمِّيَ السَّفَر سفَرًا؛ لِأَنَّهُ يُسْفِر عَن وُجُوه المُسَافِرين وأخلاقِهِمْ، فيُظْهِر مَا كَانَ خافيًا مِنْهَا"[3].

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/129.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/563.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سفر).

2) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾: "مؤقّتات بعدد معلوم، أو قلائل، فإنَّ القليلَ من المال يُعدُّ عدًّا، والكثيرَ يهالُ هيلاً... والمراد بها رمضان، أو ما وجب صومه قبل وجوبه، ونسخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كلّ شهر"[1]، وقال ابن خروف: "جَمْعَا السَّلَامَةِ مُشْتَرِكَانِ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ [البقرة: 203] الْمُرَادُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ قَلِيلٌ، وَقَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾، وَهَذِهِ كَثِيرَةٌ "[2].

3) ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾: "العِدَّةُ: فِعْلَة من العَدِّ، وهي بمعنى: المعدودة، كالطِّحْن، بمعنى: المطحون، ومنه يُقَالُ للجماعة المعدودة من النّاس: عِدَّة، وعِدّة المرأة من هذا"[3]، "أي: فعليه صوم عدد أيام المرض، أو السَّفرِ من أيّامٍ أُخَرَ؛ إن أفطر"[4].

من منعه من الصّيام المرض أو السّفر، قضى العدّة من أيّامٍ أُخَرَ

و﴿أُخَرَ﴾: جمع أُخرى، تأنيث آخر[5]، وهي في العربيّة اسم تفضيل لا ينصرف؛ لعلّتين: هما الوصفيّة والعدل، وفسّروا العدل: بأنّه عدلٌ عن الألف واللّام، وذلك أنّ لاسم التّفضيل ثلاث حالات: أن يكون (مقترنًا بأل، أو مقترنًا بمن الجارّة، أو مضافًا)، ولمّا كانت ﴿أُخَرَ﴾، لم تقترن بشيء، وليست مضافة؛ قدّر عدلها، وهناك لفظ ﴿أُخَرَ﴾ جمع أخرى[6].

4) ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: أَصْلُ مادّة (طَوَقَ) كُلُّ مَا اسْتَدَارَ بِشَيْءٍ، فَهُوَ طَوْقٌ، وَسُمِّيَ الْبِنَاءُ طَاقًا لِاسْتِدَارَتِهِ؛ إِذَا عُقِدَ، أَطَاقَ هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ

لا تكليف لنا إلّا بتيسير، ولا حرج عمّا نطيقه من الشّاقّ العسير

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/124.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/695.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/564.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/124.
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/564.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/264.

في طَوْقِهِ، وَطَوَّقْتُكَ الشَّيْءَ، إِذَا كَلَّفْتُكَهُ، مِنَ الْبَابِ وَقِيَاسِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَطَاقَهُ؛ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَدَارَ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ[1]،"الطَّاقَةُ، وَالطَّوْقُ: الْقُدْرَةُ وَالِاسْتِطَاعَةُ"[2]، وهي: "اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقّة، وذلك تشبيه بالطَّوْقِ المحيطِ بالشّيء، فقوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، أي: ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا به"[3]، قال النّسفيّ: "وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، أَيْ: لَا يُطِيقُونَهُ، وَ(لَا) مُضْمَرَةٌ، وَنَظِيرُهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النّساء: 176]، مَعْنَاهُ: لِئَلَّا تَضِلُّوا، وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: يُكَلَّفُونَهُ، فَلَا يُطِيقُونَهُ"[4].

5) ﴿فِدْيَةٌ﴾: "الفِدْيَة: الجزاء والبَدَل، من قولك: فديته بكذا، أي: أعطيته بدلًا منه"[5]. "ما يقي به الإنسان نفسه من مال يبذله في عبادة قصّر فيها، يقال له: فِدْيَةٌ، ككفّارة اليمين، وكفّارة الصّوم"[6]، قال ابن سيدهْ: " فَدَيْتُه فِدًى، وفِداءً، وافْتديْتُه، قال الشّاعرُ:

فلَوْ كانَ مَيْتٌ يُفْتَدَى لفَدَيْتُه *** بما لَمْ تَكُنْ عَنْه النُّفُوسُ تَطِيبُ

وإنَّه لحَسَنُ الفِدْيَةِ"[7].

الفدية ما يُبذل من مال، لاستدراك تقصير في عبادة معيّنة

6) ﴿تَطَوَّعَ﴾: (طَوَعَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالِانْقِيَادِ، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ، إِذَا انْقَادَ مَعَهُ وَمَضَى لِأَمْرِهِ. تَطَوَّعَ، أَيْ: تَكَلَّفَ اسْتِطَاعَتَهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي التَّبَرُّعِ بِالشَّيْءِ: قَدْ تَطَوَّعَ بِهِ؛ فَهُوَ مِنَ الْبَابِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْزَمْهُ، لَكِنَّهُ انْقَادَ مَعَ خَيْرٍ أَحَبَّ أَنْ يَفْعَلَهُ[8]. "التّطوّع هنا ليس النّافلة كما قال الفقهاء؛ فإنّ ذلك اصطلاح فقهيّ، لا

كلّ تطوّع من مؤمن بخير، فمآله لا محالة إلى خير

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طَوَقَ).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.
(3) الرّاغب، المفردات: (طَوَقَ).
(4) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 25.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565.
(6) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(7) ابن سيده، المحكم: 9/404.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).

تخضع له عبارات القرآن في دلالاتها، بل تخضع للّغة، والآثار النّبويّة فقط، والتّطوّع هنا هو المبالغة في الطّاعة قاصدًا أو طالبًا خيرًا"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تدرّج التّشريع في الصّيام من التّطوّع إلى الفرض؛ ترويضٌ على إلْفِ التّكليف:

إنّ الله يحبّ أن تُـؤتى رُخـصَـهُ، كـما يُـحـبُّ أن تُؤتى عزائمُه

يخاطب اللّه المؤمنين، مؤكّدًا على وجوبِ صّيامِ أيامٍ معلومة العدد، وهي أيام شهر رمضان من كلِّ عام، وهو "الصّيام المفروض عليكم، أن تصوموا أيّامًا قليلة من السَّنَةِ، فمن كان منكم مريضًا، مرضًا يشقُّ معه الصّوم، أو مسافرًا؛ فله أن يفطر، ثمّ عليه أن يقضي بقدر ما أفطر من الأيّام، وعلى الّذين لا يستطيعون الصّيام، ويشقُّ عليهم مشقّة غير محتمَلة، كالشيخ الكبير، والمريض الذي لا يُرْجى شفاؤه، فِدْيَة إذا أفطروا، وهي إطعام مسكينٍ عن كُلّ يوم يفطرون فيه، وصومكم خيرٌ لكم من الإفطار وإعطاء الفدية، إن كنتم تعلمون ما في الصّوم من الفضل. وكان هذا الحكم أوّل ما شَرع اللّه الصّيام، فكان من شاء؛ صام، ومن شاء؛ أفطر، وأطعم، ثمّ أوجب اللّه الصّيام بعد ذلك، وفرضه على كلّ بالغ قادر"[2].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويّ والبَلاغِيّ:

دِلَالَةُ حَذْفِ العامِلِ في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾:

التَّرفُّقُ بِالْعِبَادِ في خِـطَـابِـهِـم بالتَّشْرِيعِ

نصبُ ﴿أَيَّامًا﴾ ليس بالصّيام؛ لوجودِ فاصلٍ بينَهما، وإنَّما نصبُهُ بفعلٍ مضمرٍ، تقديره: (صُومُواْ) دلَّ عليه (الصّيام) المتقدِّمُ، والتَّقديرُ: (صُومُوا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)[3]، وأجاز بعض أهل العلم نصبَه بالصّيام، والفصلُ الحاصِلُ معفوٌّ عنه؛ إذِ الفصلُ بما ليس أجنبيًّا بين العامل والمعمول جائز على جهة الاتّساعِ في الكلامِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/554-555.
(2) المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.

قال ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ ظَرْفٌ لِلصِّيَامِ، مِثْلَ قَوْلِكَ: الْخُرُوجُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَا يَضُرُّ وُقُوعُ الْفَصْلِ بَيْنَ الصِّيام وَبَيْنَ ﴿أَيَّامًا﴾، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾؛ لِأَنَّ الْفَصْلَ لَمْ يَكُنْ بِأَجْنَبِيٍّ عِنْدَ التَّحْقِيقِ؛ إِذِ الْحَالُ وَالْمَفْعُولُ لِأَجْلِهِ الْمُسْتَفَادُ مِنْ (لَعَلَّ) كُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ عَامِلِ الْمَفْعُولِ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: صِيَامٌ"[1]، وطيُّ الفعلِ العامِلِ ههنا مناسِبٌ لبناء الفعل ﴿كُتِبَ﴾ للمفعولِ؛ إذْ ذلك أدعَى للتَّرفُّقِ بالعبادِ من التَّصريحِ بالإلزامِ بما قد يصعُبُ عليهم امتثالُهُ.

نُكْتَةُ وَصْفِ الْأَيّامِ فِي قَوْلِهِ تعالَى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾:

تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِامْتِثَالِ الْمَأْمُورَاتِ

المرادُ بالأيَّام في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ شهرُ رمضانَ، كما عليه أكثر المحقِّقينَ؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مُحتَمِلٌ لإرادة اليوم واليومين وأكثر من ذلك، فجاء بيانُه بقوله تعالى بعدُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، فتعيَّنَ أن يكون المرادُ بالأيَّام شهرَ رمضانَ، ولا وجهَ لحملهِ على غيرِهِ من المعاني[2].

ووقع وصفُ الأيّام بالمعدودات في قوله ﷻ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾، بقصد التَّسهيلِ على العبادِ، وتنشيطِ هِمَمِهم على الامتثالِ، ووجه ذلك أنَّ المعدودَ قليلٌ عادةً؛ إذ الكثيرُ يفوتُهُ العدُّ، وترشَّح هذا المعنى بمجيءِ صيغةِ المادَّةِ جمعَ مؤنَّثٍ سالمًا؛ وهو من جموع القلَّة؛ للإيماءِ إلى أنَّها أيَّامٌ قَلَائِلُ، بمنزلة الأيام الثلاثة ونحوِهَا وإن زادت في واقع الأمر فبلغَتْ شهرًا[3].

ففي وصف الأيام بالمعدودات – مع تنشيط الهمم – التَّسهيلُ على المكلّفين[4]، وبيان أنّها أيّام قلائل، وأنّ الله سبحانه لم يفرض علينا صيَام الدّهر، ولا صيَام شهورٍ؛ تخفيفًا منه سبحانه ورحمةً وتسهيلًا[5]، فهي أيام قليلة ليس مرهقةً، ولكنّها في مؤدّاها جليلة[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/180.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/445.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/552.

دِقَّـةُ اخْـتِـيَـارِ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي مَـوْضِـعِـهَـا الْمُـنَـاسِـبِ لَـهَـا إِفْرَادًا وجَمْعًا

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿أَيَّامَا مَّعْدُودَةٍ﴾:

جاء التَّعبير في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] بإفراد ﴿مَّعْدُودَةً﴾، وفي آية الصِّيام: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ بالجمع؛ وذلك أنّ جمع التّكسير مؤنّثٌ، كقولك: "الرّجالُ قامتْ، والقصورُ شيِّدتْ، وقصورٌ مشيدةٌ، هذا هو الأصل، وإنّما يُجمع بالألف والتّاء، ما كان جمعاً لمؤنّث، كقولك: نساء مسلمات؛ لأنّ واحده مسلمة، ثمّ يشبَّه الجمع الّذي ليس للعقلاء الّذي واحده مذكَّر، بجمع المؤنّث، فيقال: كُوزٌ مكسورٌ للواحد، وكِيزانٌ مكسوراتٌ، تشبيهًا بـ (مسلمات)، والأصل: كيزانٌ مكسورة؛ لأنّ التّأنيث للجماعة، لا لأنّ واحده مؤنّث، فكذلك الأصل: (إلّا أيامًا معدودة)؛ لأنَّ واحده (يوم) مذكّر، وحيث قال: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾، فللتّشبيه بـ (مسلمات)"[1].

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ (مُسَافِرًا) إِلَى التَّعْبِيرِ بِشِبْهِ الْجُمْلَةِ ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

التَّـفْـرِيـقُ بَـيْنَ العَارِضِ القَهْرِيِّ والْـعَـارِضِ الاِخْتِيَارِيِّ

عُدِلَ عن التَّعبير باسم الفاعل: (فمن كان منكم مريضًا أو مُسَافِرًا) إلى التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ للإيذانِ بالاستعلاءِ على السَّفَرِ والتمكُّنِ مِنْهُ، فكأنَّه مركوبٌ للإنسانِ يستعلِي عليه ويتصرَّف فيه كما شاء، فهو كائنٌ باختيارِ المُسافِرِ، ولذا يقال: فلانٌ على طريقٍ، وراكبٌ طريقًا، للإشعارِ بالاختيارِ، بخلاف المرضِ؛ فإنَّه يَعْرِضُ للعبدِ من غيرِ اختيارٍ مِنْهُ؛ فهو سببٌ قهريٌّ[2].

وفي حرف الجرِّ (علَى) استعارةٌ تبعيّةٌ، فقد شُبِّهَ تلبّسُ العبدِ بالسّفر باستعلاء الرّاكب على المركوب، بجامع مطلق التَّصرُّفِ والاختيارِ في كُلٍّ[3].

(1) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/140.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184، والسّمين، الدّرُّ المصون: 2/270.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/447، ومحمّد بن عبد الحقّ الهنديّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/49.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ الْمَرَضِ وَالسَّفرِ في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مريضًا، لا يقدر مع مرضه على الصّيام، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يشقّ عليه في سفره الصّيام[1]، وهذا الحذفُ غيرُ لازمٍ تقديرُهُ؛ إذ يغني عن الأوَّلِ قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾؛ فإنَّ ظاهره يقتضي أنَّه لا يجوزُ الفِطْرُ بمطلق المرضِ، بل بمَرَضٍ محقَّق ثابت يصدُقُ أن يقالَ في صاحبه: كان مريضا؛ لأن (كَانَ) تدلُّ على الاستمرارِ، وأمَّا استغناءُ الثَّاني -وهو السَّفر- عن القيد المذكورِ؛ فلأنَّ الإفطارَ في السَّفَرِ ليس منوطًا بالمشقَّةِ، فعلَّةُ الفطرِ: السَّفَرُ، لا المشقَّةُ فيهِ.

لَا يَجُوزُ الفِطْرُ بِمُطْلَقِ المَرَضِ، بل بِمَرَضٍ محقَّق ثابتٍ

وفي قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ حذفٌ، أي: فعليه عدّة، والتّقدير: فَعَليه صَومُ عِدّةٍ، ويكون هذا من باب حذف المضاف[2]، وهو كثيرٌ في كلام العرَبِ، والمرادُ، فعليه صوم عددِ أيَّام المرض أو السّفر من أيّام أخر؛ إن أفطر، فمجموعُ ما حُذِفَ في هذا التَّركيب: الشّرط، والمضاف، والمضاف إليه؛ كلُّ ذلك حُذِفَ وطُوِيَ لِلْعِلْمِ بهِ[3]، قال الماورديّ: "﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّه مع وجود السّفر، يلزمه القضاء، سواء صام في سفره أو أفطر، وهذا قول داود الظّاهري. والثّاني: أنّ في الكلام محذوفًا وتقديره: فأفطر فعدّة من أيّام أخر، ولو صام في مرضه وسفره؛ لم يُعِدْ، لكون الفطر بهما رُخْصَة لا حتمًا"[4]، وبناءً على كلام داودَ؛ فليس في الكلامِ حذفٌ للشَّرطِ؛ إذ هو يوجب القضاءَ مطلقًا للمسافرِ ولو صامَ، وهو خلافُ قول الجماهيرِ.

طَرِيقَةُ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهَا الْحَذْفُ؛ إِذَا كَانَ فِيمَا أُبقِيَ دليلٌ عَلَى مَا أُلقِيَ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/238.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/563.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/238.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ (عِدّة) مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾:

القَضَاءُ يَحْكِي الأَدَاءَ، فَلَا يَجِبُ عَلَى العَبدِ عِدَّةٌ غَيْرُ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِمَّا صَامَهُ

جاءت كلمة (عِدَّةٌ) من قول الله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ منكَّرةً، ولم يقل: فعدّتها، أي: فعدّة الأيام المعدودات؛ وذلك لأنَّه لمّا قيل: فعدّةٌ، والعدّة، بمعنى: المعدود، فأمر بأنْ يصوم أيامًا معدودة مكانها؛ علم أنّه لا يؤثّر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن تعريفِهَا بالإضافة[1]، فجاء التَّنكيرُ دون التَّعريف اتِّكالًا على المعنى[2]، قال أبو حيّان: "ونكّر (فَعِدَّةٌ)، وَلَمْ يَقُلْ: فَعِدَّتُهَا، أَيْ: فعدّة الْأَيَّام الَّتِي أُفْطِرَت اجْتِزَاءً؛ إِذِ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ عِدَّةٌ غَيْرُ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِمَّا صَامَهُ، وَالْعِدَّةُ هِيَ الْمَعْدُودُ، فكان التّنكير أخصر"[3].

عِلَّةُ الْعُدُولِ فِي وَصْفِ الْأَيّامِ عَنِ الْمُفْرَدِ (أُخْرَى) إِلَى الْجَمْعِ ﴿أُخَرَ﴾:

لَمْ تَصِفِ الْعَرَبُ بِـ(آخَر) و(أُخْرَى) وَجَمْعِهِمَا إِلّا ما يُجَانِسُ المَذْكُورَ قَبْلَهَا

وردَ لفظُ ﴿أُخَرَ﴾ جمعًا دونَ لفظ (أخرى) إفرادًا؛ لأنَّ الأيَّام جمعٌ لما لا يعقلُ، وهذا الضَّربُ من الجموعِ يجوزُ أن يعامَلَ معاملةَ الواحدةِ المؤنَّثةِ، أو معاملة جمعِ الإناث؛ فَمِن الأوّلِ قولُ الله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18]، ومِنَ الثّاني: هذه الآيةُ ونظائرها.

وأُوثِرَ معاملة الجمعِ ههنا معاملةَ الجَمْعِ المؤنَّث، لأنّه لو جِيءَ بالوصفِ مُفْرَدا، فقيل: (عِدَّةٌ من أيّامٍ أخرى)؛ لأوْهَمَ خلافَ المرادِ، وأنّه وصفٌ لـ(عِدَّة)، فيفوتُ المقصودُ ويضيعُ المعنَى[4]، فعُدِلَ عن (الأخرى) إفرادًا مع كونِهِ في نفسهِ صحيحًا؛ لئلَّا يكون المعنى مشكلًا مخالفًا لمقصود الكلام البليغ من الإبانَةِ[5]، "فَلَا يُدْرَى: أَهُوَ وَصْفٌ لِعِدَّةٍ، أَمْ لِأَيَّامٍ؟ وَذَلِكَ لِخَفَاءِ الْإِعْرَابِ؛ لِكَوْنِهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/226.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184-185.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184-185.
(4) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/271-272، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 1/77.

مَقْصُورًا، بِخِلَافِ: ﴿أُخَرَ﴾؛ فَإِنَّهُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ صِفَةٌ لِأَيَّامٍ؛ لِاخْتِلَافِ إِعْرَابِهِ مَعَ إِعْرَابِ ﴿فَعِدَّةٌ﴾"[1].

ولذا يقع الإيهام في نحو قولهم: ابْتَعْتُ عَبْدًا وجاريةً أُخْرَى؛ إذ "العربُ لم تصف بلفظتَي (آخَر) و(أُخرى) وجَمْعِها إلّا بما يجانس المذكور قبله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: 19-20]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فوصف ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لمّا جانَسَتِ العُزّى واللّاتَ، ووصف ﴿أَيَّامٍ﴾ بـ ﴿أُخَرَ﴾؛ لكونها من جنس الشّهر، والأَمَةُ ليست من جنس العَبْد؛ لأنّها مؤنّثة وهو مذكّر، كما لا يقال: جاءت هندٌ ورجلٌ آخرُ"[2].

الإيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾:

مَا اسْتَقَرَّ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ بِأَدِلَّةٍ مُتَظَافِرَةٍ دالٌّ عَلَى الْحَذْفِ وَمُعَيِّنٌ لِلْمَحْذُوفِ

في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ محذوفٌ واجبُ التَّقدير، وهو: الإفطار؛ إذ الفدية للإفطار لا للإطَاقة، ومعنى الآية على هذا: (وعلى الّذين يطيقون الصّيامَ فأفطروا؛ فدية طعام)؛ فالفديةُ واجبةٌ بالإفطار لا بالإطَاقة[3].

وفي الآية محذوفٌ آخرُ؛ وهو (لا) النافية؛ ويطَّرد حذفها في جواب قسم إذا كان المنفيُّ فعلًا مضارعًا، كقول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 85]، أي: لا تفتأ، وحذفها مع الفعلِ الماضي قليلٌ، ويسهّله تقدّمُ (لا) على القسم، كما في قول الشّاعر:

فَلَا وَاللهِ نَادَى الْحَيُّ قَوْمِي *** هُدُوًّا بِالْمَسَاءَةِ وَالعِلَاطِ[4]

"وسُمع بدون القسم، وقد قيل به في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾، أي: لئلّا تضلّوا، وقيل: المضاف محذوف، أي: كراهة أن تضلّوا، ومنه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، أي: لا يطيقونه"[5]، فيكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/185.
(2) الصّفدي، تصحيح التّصحيف، وتحرير التّحريف، ص: 69 . 70.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565- 566.
(4) البيت للمُتنخِّل الهُذَلِي، يُنظر: ديوان الهذليين: 2/21.
(5) التّهانويّ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/635، والكفويّ، الكليّات، ص: 1026.

مجموعُ الحذفَيْنِ دالاّ على أنَّ المعنى: (وعلى الذين لا يُطيقونه، فأفطروا؛ فديةٌ)، فحُذف حرفٌ وجملةٌ، دلَّ عليهما ما بَقِيَ من الكلامِ، ومَا استقرَّ معرفتُهُ في الشَّرعِ من كون الفديةِ واجبةً بالإفطارِ.

تَوْجِيهُ اخْتِلَافِ الْقُرَّاءِ ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَۖ﴾ بينَ التَّنْوِينِ وَالْإِضَافَةِ، وَبَيْنَ الْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ:

الْـعِـبَـارَاتُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الاعْتِبَارَاتِ

قرأ جمهور العشرةِ ﴿فِدْيَةٌ﴾ بالتَّنوين، و﴿طَعَامُ﴾ بالرَّفع تفسيرًا للفديةِ، و﴿مِسْكِينٍۖ﴾ على الإفرادِ؛ "لأنّ المعنى: على كلّ واحدٍ لكلّ يوم إطعامُ مسكين"[1]، و﴿فِدْيَةٌ﴾ مرفُوعٌ بِالابْتِدَاء، و﴿طَعَامُ مِسْكِينٍۖ﴾ بدلٌ مِنْهُ، ووجه إِفْرَاد المسكين: أنَّ كُلَّ يوم يُطالَبُ مُفْطِرُهُ بإطعامِ مسكينٍ[2].

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان بإضافة الفِدْيَةِ إلى الطَّعَام، وجمعِ المساكين[3]، فقرأوا: ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَٰكِينَۖ﴾، ووافقهم على الأخير هشامٌ[4]، فقرأ: ﴿فِدْيَةُ طَعَامُ مَسَٰكِينَۖ﴾، ووجه الإضافة: أنّ الفدية غير الطّعام، وأنّ الطّعام إنّما هو المُفْدى به الصّوم، لا الفدية، فإذا كان كذلك؛ كان وجهُ القراءة: إضافةَ الفديةِ إلى الطّعام، ووجهُ جمع مساكينَ: قولُ اللّهِ تعالى قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، ثمّ قال: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، وإنّما عرّفَ اللّهُ تعالى عبادَهُ حُكمَ من أفطر الأيّام الّتي كَتَب عليهم صومَهَا، بقوله: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، فإذا كان ذلك كذلك، فالوجهُ: أن تكون القراءة في (المساكين) على الجمع لا الإفرادِ، ويكون تأويل الآية: (وعلى الّذين يُطيقونهُ فديةُ أيّام يفطر

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/566.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/181، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/226.

فيها إطعام مساكين)، ثمّ حُذِفَتْ (أيّام)، وأقيمَ (طعام) مقامَهَا[1]، وقال الواحديُّ: "وجمعوا المساكين؛ لأنَّ الذين يطيقونه جماعة، وكل واحد منهم يلزمُهُ طَعامُ مِسْكِين"[2]. "وَمن قَرَأَ: ﴿مَسَٰكِينَ﴾؛ لِأن جملَة طَعَام أَيَّام الصَّوْم تكون لمساكين"[3]، فالقراءتان متكاملَتانِ بالنَّظرِ إلى اعتبارَين مختلفَين، وقد تقرر عند العلماء أنَّ العباراتِ تختلف باختلاف الاعتباراتِ.

وجه إضافةِ الفديةِ إلى الطّعام؛ وهي طعامٌ:

مِـــن أَنْـــوَاعِ الْإِضَافَةِ الْإِضَافَةُ عَلَى تَقْدِيرِ (مِنْ)

أُضيفَت الفدية إلى الطَّعام -في قراءة من قرأ ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ﴾ بالإضافةِ- وهي طعامٌ؛ لأنّ الفدية اسمٌ للقدر الواجب، وبخلاف الطّعام؛ فهو اسم يعمّ الفديةَ وغيرها، فتكون هذه الإضافة من "الإضافة الّتي تكون بمعنى (مِن)، وهو أن تضيف الاسمَ إلى اسمٍ يقع على الاسم الأوّل، كقولك: ثوبُ خَزٍّ، وقميصُ كتَّانٍ، وخاتم حديد، والمعنى: ثوبٌ من خَزٍّ، وقميصٌ من كتان، وخاتمٌ من حديد، ألا ترى أنّك تطلق على الثّوبِ اسم الخزّ، وعلى القميص اسم الكتّان، وعلى الخاتم اسم الحديد"[4]، كذلك الذي ههنا؛ فإن تقديره: (فديةٌ من طعام)، فالإضَافة على تقدير (من).

دلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾:

الاحْـتِـمَـالُ فِي النَّصِّ الْـقُـرْآنِيِّ بِمَا هُوَ حَقٌّ فِي نَـفْـسِـهِ يُـوسِّـعُ دَائِـــرَةَ الْمَـعَـانِي وَيُكَثِّرُهَا

الفاء: فصيحةٌ؛ إذ قد أفصحت عن شرط مقدَّرٍ، والتَّقدير: إذا كان قد كتَبَ اللّهُ عليكم الصّومَ، ويسّر عليكم "بالرُّخَص الّتي رخَّص بها، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، أي: فمن قصد الطّاعة، وتكلّفها قاصدًا الخير؛ فهو خير يدّخره له يوم القيامة"[5].

(1) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 1/376 (التّعليق في الهامش).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/566.
(3) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/181.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/566.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/554.

و(خيرًا) من قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ منصوبٌ بنزعِ الخافضِ، أي: من تطَّوع بخيرٍ، ويحتمل أن يكون منصوبًا لكونِهِ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ، والمعنى: من تطوَّعَ تطوُّعًا خيرًا[1]، "وَدَلَّ وَصْفُ الْمَصْدَرِ بِالْخَيْرِيَّةِ عَلَى خَيْرِيَّةِ الْمُتَطَوَّعِ بِهِ"[2].

وقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ أي: صام، ولم يأخذ بالفطر والكفّارة، وذلك على القول بالنّسخ، وقيل: تطوّع بالزّيادة في مقدار الإطعام، وذلك على القول بعدم النّسخ[3]، وفتح باب الاحتمالِ في النَّصِّ القرآنيِّ بما هو حقٌّ في نفسِهِ يُوسِّعُ دائرةَ المعاني ويُكثِّرُهَا.

الْفَرْقُ بَيْنَ لَفْظِ (خير) فِي مَوْضِعَيْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

سَعَةُ فَضْلِ اللهِ تَـعَـالَى بإثابته العَامِلَ بِأَحْسَنَ مِـــنْ عَـمَـلِـهِ وَأَعْظَمَ

﴿خَيْرٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ اسم تفضيل، وأصلُهُ: أَخْيَرُ، إلَّا أنَّه غلبَ حذفُ همزتِهَا تخفيفًا؛ لكثرة دورانِهَا في الكلام، فمعنى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، أي: أزيد خيرًا، وبهذا صحَّ أن يقال: الخير خيرٌ له[4]، فليس فيه تطابقٌ بين المبتدأ والخبرِ، ومعنى الجملة بتمامها: "فمن تطوّع خيرًا -بأنْ زاد على القدْر المفْرُوض في الفدية، أو أطعم أكثر من مسكين، أو جمع بين الإطعام والصّوم-، فتطوُّعُه سيكُونُ خيرًا عند الله سبحانه، لا يضيع أجر من أحسن عملًا"[5]، فجزاءُ الله تعالى على الأعمال أحسنُ من عمل العاملِ وأعظمُ.

وفي معنَى التَّطوُّعِ ههنا أقوالٌ، سبقتِ الإشارةُ إلى بعضِهَا قريبًا[6].

و(مَنْ) في قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ يحتمل أن تكون شرطيّة، ولا إشكالَ على هذا الوجه، ويحتمل أن تكون (مَنْ) موصولة، وذلك مشكلٌ؛ لأنّ ذلك كقولك: (إنّ الذّاهبةَ جاريةُ مالكِها)، وقد نصَّ

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/449.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/110.
(4) محمد بن عبد الحق الهنديّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/50.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/386.
(6) الماوردي، النّكت والعيون: 1/239.

على عدمِ جوازِهِ جماعةٌ، منهم الفارسيُّ[1]، ويُدفَعُ الإشكالُ بأن يقال: إنّ الخيرَ الأوّل في قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ هو المال، والثّاني الذي في قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فعلُ ما هو أفضل من غيره، أو أنَّ الخير الأوّلَ فَضْلٌ، والثّاني أفضلُ فعلٍ[2].

بَيَانُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ (هُوَ)، وَدِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿خَيْرًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

مُعَامَلَةُ اللهِ تَعَالَى بِالتّفضّلِ لَا بِالتّقلّلِ مُفْضِيَةٌ إِلَى تَدَفّقِ إِحْسَانِهِ عَلَى الْمُتَطَوّعِ

الضَّمير (هُوَ) في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ يعودُ على المصدر المستكِنِّ في ﴿تَطَوَّعَ﴾؛ إذ دلالةُ الفعل مركَّبةٌ من مصدرٍ وزمنٍ، فكان الضَّمير (هو) راجعًا إلى أحدِ مدلولَيِ الفعلِ، وهو المصدرُ؛ والمعنى: فمن تطوَّع خيرًا؛ فالتَّطوُّعُ خيرٌ له، فهو نظيرُ قَوْلِ الله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، أي: الْعَدْلُ.

وَ﴿خَيْرٌ﴾: خَبَرٌ لِـ (هُوَ)، وَهُوَ هُنَا أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْوَاجِبِ -إِذَا كَانَ قابلًا للزِّيَادَةِ- خَيْرٌ مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَيْهِ.

وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ تَطَوُّعٍ بِخَيْرٍ[3]، ولا سيَّما إذا حملنا (مَن) على معنى الشَّرطيَّة؛ لأنَّ ﴿خَيْرًا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يكون نكرةً في سياقِ الشَّرطِ، فيَعُمُّ، وهو إحدى نِكَاتِ تنكيرِهِ ههنا.

دِلَالَةُ الْخَيْرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

كُلُّ تَخْيِيرٍ مِنَ اللهِ فِيهِ نَفْعٌ مَلْحُوظٌ، وَأَجْرٌ مَحْفُوظٌ

الخيريَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ راجعةٌ -كما هو الظاهر- إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ "فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ ذَلِكَ نَازِلًا فِي إِبَاحَةِ الْفِطْرِ لِلْقَادِرِ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ تَرْغِيبٌ فِي الصَّوْمِ، وَتَأْنِيسٌ بِهِ، وَإِنْ كَانَ نَازِلًا فِي إِبَاحَتِهِ لِصَاحِبِ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/195.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/537.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.

الْمَشَقَّةِ، كَالْهَرِمِ فَكَذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ وَمَا بَعْدَهُ، فَيَكُونُ تَفْضِيلًا لِلصَّوْمِ عَلَى الْفِطْرِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا فِي السَّفَرِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ"[1].

تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾:

كلّ ما رغّب فِيهِ الـشّـرعُ؛ فَـهُـوَ خَيْرٌ مُسْتَفِيضٌ

والمخاطب في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ هم المطيقون، أو هُمُ المرَخَّصُ لهم في الفطر؛ وذلك ليندرج تحتهم المرضى والمسافرون[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّ الصّوم في السّفر خير من الفطر فيه والقضاء بعده.

والآخرُ: أنّ الصّوم لمطيقهِ خيرٌ وأفضل ثوابًا من التّكفير لمن أفطر بالعجز[3].

وقال السّمعانيّ: " إِن قُلْنَا بقول النّسخ، مَعْنَاهُ: وَأَن تَصُومُوا خيرٌ لكم من الْفِدْيَة، وَإِن قُلْنَا: الْآيَة غير مَنْسُوخَة؛ فَمَعْنَاه: وَأَن تَصُومُوا فِي حَال الشَّبَاب خيرٌ لكم من الْفِدْيَة فِي حَال الْكبر وَالْعجز، وَقيل: هَذَا فِي حقّ الشَّيْخ الْهَرم، أَن يتَكَلَّف الصَّوْم خيرٌ لَهُ من أَن يفْدي، وَالصَّحِيح: أحد الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلين"[4]، والقولانِ في ذاتهما لا تعارُضَ بينهما؛ فالصَّوم في السفر خيرٌ من الفطر فيه والقضاء بعده، لمن لا يشقُّ عليه الصَّوم في السَّفر؛ لأنَّ فيه مبادرةً إلى الطَّاعة وإبراءً للذّمَة، وكذلك الصَّوم للمُطيقِ أفضلُ من التَّكفيرِ للعاجزِ عَنْهُ؛ فاللفظُ يحتملُ المعنيينِ من غير أن يكون ثَمَّ تعارُضٌ بينَهُمَا، فيُحمَلُ اللّفظُ عليهما معًا، ويكون في هذا تكثيرًا للمعاني القرآنيَّةِ وتوسيعًا لها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/168.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/239.
(4) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/181.

دلَالَةُ الْإِخْبَارِ عَنِ الصّيَامِ بِالْخَيْرِيَّةِ، وَتَنْكِيرِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

عَـظَـمَـةُ قَـدْرِ الصِّيَامِ وَجَلِيلُ خَيْرِيَّتِهِ

في الإخبار عن الصِّيام بالخيريَّة حثٌّ وتحريضٌ على القيام بهذا الواجب المفروض الذي كَتَبَهُ الله تعالى على أهل الإسلام وعلى من قبلهم، ولا ريبَ أنَّ أداءَ الواجبِ وامتثالَهُ خيرٌ عظيمٌ[1]، ولا سيَّمَا امتثالُ العبادَاتِ الجليلةِ التي سَمَا قدرُهَا فاندرجَت في سلك أركان الإسلام، ولذا وقع الخبرُ عن الصِّيام بالتَّنكيرِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ للإشعارِ بعظمَتِهِ وفخامَتِهِ وعلوِّ منزلَتِهِ.

ويجوز أن يكون المعنى: (الخيرُ في صيامكم)؛ إشعارًا بثوابه العظيم؛ إذ إنَّ القصد من العبادات: إخلاصُ العبد وصدقُ نيَّتِه، وأفعال الجوارح كثيرًا ما يدخلُها الرِّياءُ، إلَّا الصَّومَ؛ "فإنّه لا يوقف عليه، ما لم يخبر الإنسان عنه بلسانه، ولا عبادة يدخل فيها الإنسان بالنّيَّة المجرّدة إلّا الصّوم"[2]، ولذا جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[3]، قال الحَرَالِّيّ: "فكان في الصّوم تنقّص ذات الصّائم، فلذلك قال تعالى: «فإنّه لي» حين لم يكن من جنس عمل الآدميّ، قال سبحانه وتعالى: «وأنا أجزي به»، ففي إشارته أنَّ جزاءه من غيب الله، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشَر، كلّ ذلك في مضمون قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾"[4]، ففي إبهام الجزاءِ في قوله: «فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» تفخيمٌ لشأنِه.

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

حَـثُّ الْمُتَلَقِّي وَتَنْشِيطُهُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أُمِرَ بِهِ

في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/555.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/390.
(3) البخاري، الحديث رقم: (1904)، ومسلم الحديث رقم: (1151).
(4) الحَرَالِّيُّ، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّيّ المرّاكشي في التّفسير، ص: 339.

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أسلوبُ غَيْبَةٍ، وقولَه تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أسلوبُ خطابٍ؛ ونُكتة الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطاب: هزُّ متلقِّي الخطابِ وحثُّهُ وتنشيطُهُ على الامتثالِ[1]؛ حيث بيّن أنّهم هُم المقصودون بمَضْمُونِ الكلَامِ، وفي توجيهِ الخطابِ مزيدُ عنايةٍ بالمخاطَبِ، وفيه تكريمٌ له وتشريفٌ إذْ كان الخطابُ صادرًا من اللّه تعالى.

بَلَاغَةُ التّذْيِيلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لعدم استقلالِهِ، ولافتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمام المرادِ منه، ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: "أي: تَعْلَمُونَ فَوَائِدَ الصَّوْمِ، عَلَى رُجُوعِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمُ الْقَادِرِينَ، أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَوَائِدَ الصَّوْمِ دُنْيَا وَثَوَابَهُ أُخْرَى، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ثَوَابَهُ عَلَى الاحْتِمَالَاتِ الْأُخَرِ"[2]، قال الطّبريّ" وأما قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإنّه يعني: إنْ كنتم تعلمون خيرَ الأمرين لكم -أيّها الّذين آمنوا- مِنَ الإفطار والفدية أو الصّوم على ما أمركم اللّه به"[3].

من ثمار الصّوم، عاجلٌ في الدّنيا، وآجلٌ في الآخرة

وفي تذييل الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حضٌّ وتحريضٌ على العِلْمِ بما للصَّوْمِ من جزاءٍ وحِكَمٍ وأسرارٍ، وحثٌّ وتحريضٌ للمخاطَبين على الامتثالِ بمضمون ذلك العِلْمِ.

لَوْ عَلِمَ النّاسُ حِكَمَ الصّيَامِ العَظِيمَةَ؛ لَسَارَعُوا إِلَيْهَا رُخْصَةً وَعَزِيمَةً

دِلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعلٌ متعدٍّ، لم يُذكَر مفعولُهُ، وقد عُلِّقَ بحرفِ الشَّرط (إِنْ) من غير تصريحٍ بجوابِ الشَّرطِ، فتحصَّل لَنا في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3 /444.

جملة التَّذييلِ حذفَانِ، والتَّقدير: إن كنتم تعلمون ما في الصَّوم من الفضل وعظيم الثَّواب وإبراء ذمَّة العَبْدِ؛ لاخترتُمُوهُ.

ويحتمِلُ أن يكون الفعل المتعدِّي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللَّازِمِ، والمعنى: إن كنتم مِن أهل العلم والتّدبّر؛ لعَلِمْتُم أنّ الصّوم خيرٌ لكم من ذلك[1].

قال الماورديّ: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: إن كنتم تعلمون ما شَرَّعْتُه فيكم، وَبَيَّنْتُه من دينكم، والثّاني: إن كنتم تعلمون فضل أعمالكم وثواب أفعالكم"[2]، وقال الرّاغب الأصفهانيّ: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن عرفتم ما فيه من المنفعة، وتحقّقتم ما يثمره لكم، لم تتهاونوا في تحمّله"[3]، وقال أبو السّعود: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما في صومِكم -مع تحقّق المبيحِ للإفطار- من الفضيلة، والجوابُ محذوفٌ ثقة بظهورِه، أي: اخترتموه، أو سارعتم إليه، وقيل: معناه: إنْ كنتُم من أهلِ العلم والتّدبير؛ علمتم أنّ الصّومَ خيرٌ من ذلك"[4].

وحاصلُ هذه الأقوال الّتي تصبُّ في مصبّ واحد: أنّ السّياق القرآنيّ يلفت النّظر إلى ما في الصّيام من فضائل ومنافعَ ومزايا، وما في الرّخصة مِن يُسر ولُطف وترفّق، لو علمها النّاس؛ لسارعوا إلى هذه العبادة النّفيسة، عزيمةً ورخصةً، ولَعَلِمُوا أنّ الصّوم خيرٌ لهم في كلّ الأحوال.

دِلَالَةُ إِنْ الشّرطيّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

جاءت جملة التَّذييل مصدَّرة بحرف الشَّرط (إِنْ) للإيماء إلى عدم تحقُّقِ العِلْم؛ إذ إنَّ (إِنْ) موضوعةٌ في الأصلِ للدّلالة على الشَّكِّ في وقوع مدخولِهَا، فأفاد قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للإيذانِ بأنّ عِلْمَهُم من شأنِهِ ألّا يكون محقَّقًا[5]؛ لخفاءِ كثيرٍ من حِكَمِ الصِّيامِ وأسرارِهِ على العبادِ.

مَا يَخْفَى عَلَى الْعِبَادِ مِنْ حِكَمِ الصِّيَامِ وَأَسْرَارِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْرِفُونَهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/239.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/390.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/199.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168.

ونلمحُ فيهَا ترجيحَ المتعدّي على اللّازم، بما عبّر عنه شيخ زاده بقوله: "ورجح احتمال أن يكون مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾، مقدّرًا محذوفًا للاختصار، على احتمال كونه منزَّلًا منزلة اللّازم؛ لإفَادَتِهِ ما لا يفيده"(1).

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

تَنَاسُبُ الْفَوَاصِلِ الْقُرْآنِيَّةِ مَعَ مَضْمُونِ آيَاتِهَا

قال الله تعالى ههنا: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وجاء في سورة النِّساء: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: 25]، وفي سورة هودٍ: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ [هود: 86]، وسرُّ التَّغايُرِ بين هذه الآيِ: أنَّ آية البقرة تقدَّمها قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فلمَّا اختصَّ الله تعالى بعلم هذه الخيريَّةِ، ولا سبيلَ للخَلْقِ إلى الإحاطة بها إلَّا إذا علَّمهم الله تعالى إيَّاها، وكان المرادُ حثَّ العبادِ على عِلْمِ ذلك؛ ناسبَهُ أن يقول عَقِبَهُ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وأمَّا آية سورة النِّساءِ، فقد تقدَّمها قوله سبحانه: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ﴾ [النساء: 25] – في سياق الكلام عن نكاحِ الإماءِ –، فلمَّا كان الصَّبر على عدم زواج الإماءِ قد يقترِنُ به شيءٌ من التَّقصيرِ؛ ناسبَهُ تعقيبُهُ ببيان تجاوز الله تعالى عن ذلك التَّقصير، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النساء: 25].

وأمَّا آية سورة هودٍ، فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: 86]، فلمَّا كانت خيريَّةُ ما يُبقيه الله تعالى من ثمرة العدل في الدُّنيا والآخرة تُرغِّبُ العبادَ في الإيمان بوعدِ الله تعالى، وكان المرادُ حثَّهم وتحريضَهم عليه؛ ناسبه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ [هود: 86](2).

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/450.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 209.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»